- **كيف بدأت اللسانيات في الغرب ؟**

إن أصل تسمية اللغات الهندو الأوروبية يعود إلى العالم البريطاني **توماس يونغ (1773-1829)**) حيث صاغها سنة **1813** لأن امتداد هذه اللغات المشتركة في الأصل من غرب أوروبا إلى شرق الهند. ويعتقد أنّ كل هذه اللغات تشترك في جذر مشترك، ويقدّر عدد اللغات المنتمية لهذه الأسرة بقرابة **500 لغة**. وتُعتبر لغات هذه العائلة لغات لاصقة أي أنها تعتمد على اللواحق بشكل كامل.

أما اللغة السنسكريتية التي كُتبت بها **الفيدا** The Vedas[1] فهي إحدى اللغات الهندوأوربية القديمة بحيث تم اكتشافها من طرف المستشرق البريطاني **وليام جونز** (1746-1794) سنة **1786** أثناء إقامته في **البنغال** في الهند، عندما قدّم **وليام جونز** ورقة علمية **للجمعية الآسوية** التي تعنى بدراسة لغات الشرق، وأثبت فيها أن هناك تشابهًا تركيبيا بين السنسكريتية واللغتين اليونانية واللاتينية.

ولقد كان هذا الاكتشاف حدثا علميا مهمّا وهو سر البداية العلمية الحقيقية لعلم اللسانيات في الغرب، بحيث انصبّت بسبب هذا الحدث العلمي بحوث المقارنين لتبيان التشابهات بين المفردات والقواعد بين عائلة اللغات الهندو أوروبية.

أما لماذا لم تظهر اللسانيات في الصين بمفهومها العلمي الحديث ؟ وذلك لعدة أسباب ثقافية ولغوية متشابكة، من بينها:

1- أنّ اللغة الصينية لا تنتمي إلى عائلة اللغات الهند وأوروبية التي ظهرت منها اللسانيات بمفهومها العلمي الحديث بل تنتمي الصينية إلى **اللغات الصينية التبتية**، وتضم أكثر من 400 لغة منطوقة في شرق آسيا وجنوب شرقها.
2- أنّ اللغة الصينية لغة عازلة لا تلصق بها حروف زائدة لا قبلها ولا بعدها، ولا وجود لعلم الصرف فيها الذي هو رابطة عقد اللغة، أما علم النحو في اللغة الصينية فهو قليل الأهمية بحيث يقوم بإعطاء المعنى للجملة فقط.
3- أنّ اللغة الصينية لغة غير ألفبائية ذات نظام كتابي لوغوغرافي (**logographies**) أي تتكون من حروف بلا أبجدية، وكل حرف منها يمثل فكرة، وتكتب من الأعلى إلى الأسفل وتصل رموزها إلى **50 ألف**

1

رمز، لكي تقابل العدد الكبير من المعاني والمفاهيم في اللغة. ولقد بسّطت الصينية في نحو **4000** رمز بمعنى يحتاج التلميذ إلى **4000** حرفا ليقرأ جريدة عادية.

ملاحظة: قال المستشرق الألماني أوجست فيشر :" **إذا استثنينا الصين فلا يوجد شعب أخر يحق له الفخر بوفرة كتب علوم لغته غير العرب** "، وإذا أردنا أن نفكك هذه المقولة، فإنه يمكن القول أن التراث اللغوي الصيني كان سببا في عدم استجابة الصينين لعلم اللسانيات الحديث الذي ظهر في الغرب، ذلك أنّ هناك نظرية تسمى (**نظرية السوابق عوائق**) وملخصها أنّ الأمم التي تعيش في مواطن الحضارات الأولى لا تستطيع أن تنفك من عواق القديم، وهذه النظرية يمكن مقاربتها في التفكير اللغوي.

- **هل كان للعرب نهضة لغوية حديثة ؟**

نعم، لقد كانت هناك نهضة علمية حقيقية حديثة في علوم اللسان العربي ما بين منتصف القرن **ق17م** إلى أوائل **ق19م**، وبدأت مع ثلاثة علماء في اللغة، وهم:

1- **عبد القادر البغدادي** (ت-1683م) صاحب كتاب **"خزانَة الْأَدَب ولبّ لُبَابِ لِسَان الْعَرَب"**،[1] ويعد هذا المصنّف نهضة لوحده في الدراسات اللغوية في **ق17م.**
2- **المرتضى الزبيدي** (ت-1790م) صاحب**"تاج العروس من جواهر القاموس"**[2]، في علم اللغة والمعجم، قيل عنه بأنه آخر المد اللغوي في المعاجم العربية.
3- **حسين المرصفي** (ت: 1889م)، صاحب كتاب**:"الوسيلة الأدبية لعلوم العربية"**، نشره سنة **1871**. وهو أوّل مصنّف جدّدت فيه مفاهيم علوم اللغة يجمع بين الإحاطة والعمق والتذوّق.

غير أنّ هذه النهضة العلمية العربية الحديثة في مجال الدراسات اللغوية والإنسانية؛ كانت ضحية الاستعمار والإستشراق والتبشير.

---

[1] وهو شرح لشواهد كافية ابن الحاجب (ت:646هـ)، وشواهد الشافية للإستراباذي (ت:686هـ)، وشرح مغني اللبيب لابن هشام (ت:761هـ).

[2] استغرق الزبيدي في تأليفه 14 سنة، ولما أتم إنجازه أولم وليمة حافلة جمع فيها طلاب العلم وأشياخ وقته.
أما في التاريخ نجد الجبرتي الكبير (1698-1774م)، وهو صاحب كتاب **"عجائب الآثار في التراجم والأخبار"**، ويعتبر هذا المصنف ثالث هرم علمي في علم التاريخ والحضارة، بعد كتاب تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (ت:310ه)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (ت:630هـ). أما في علوم العقيدة نجد **محمد بن عبد الوهاب** الذي جدد مفاهيم الدين وخلصه من الخرفات والبدع والشرك.

أما هل للعرب لسانيات عربية حديثة ؟

فإنه لو أحصينا البحوث والدراسات والاجتهادات وحتى المشاريع اللغوية ابتداءا من أول كتاب في العصر الحديث في تعليمية قواعد العربية وهو كتاب **"الدروس النّحوية"**، الذي ظَهرَ سنة **1887**. لـ:**حفني ناصف وآخرون**، الذي قرّظه العلامة الطنطاوي، بأنه:"أعجوبة في جمعه وترتيبه وإيجاز عبارته واختيار الصحيح من القواعد، وهو أصح وأوسع من شذور الذهب وشرح ابن عقيل."[1]

مرورا؛ بـ: كتاب"إحياء النحو"، **لإبراهيم مصطفى** الذي نشره سنة 1937، ومرورا بـ: **عباس حسن** في كتابه: **"النحو الوافي"**، الذي نشره سنة **1960**، ومرورا بـ: **فاضل صالح السّامرائي** في كتابه:**"معاني النحو"**، الذي نشره سنة 1989. **إلى غاية** كتاب:**"الكفاف"**، **لـ:يوسف الصيداوي** الذي نشره سنة **1999**، الذي أعاد فيه صياغة كل قواعد العربية، وفرق فيه بين القواعد والنحو ورأى:" القواعد تنطلق من (هكذا قالت العرب) وتقف عند (هذا لم تَقُله العرب). وأما النحو فجولان فكريّ في هذه القواعد."[2]

فإنّ هذه الكتب والبحوث والدراسات والاجتهادات على مدى حوالي قرن كانت متنوعة ومتفاوتة من حيث الطرح والعمق والفهم، وهي تعدّ بالمئات وكلّها في سبيل تقريب العربية لتعلمها وتعليمها، ومقاربتها باللسانيات لتطويرها.

غير أنه يعتبر تمّام حسان في كتابه:"اللغة العربية معناها ومبناها"، الذي نشره سنة **1973**، ومجمل القول فيه أنه يعتبر ثالث شخصية لسانية غيرت القناعات في تاريخ العربية بعد سيبويه (ت:180ه)، والجرجاني (ت:471ه) بكتابه هذا. الذي يحمل نظرية شاملة لفهم النظام اللغوي للعربية تسمى، بـ:**"نظرية تضافر القرائن"**.

أما الرجل الثاني فهو **عبد الرحمن الحاج صالح** صاحب النظرية الخليلية، وهي في الأصل أطروحة دكتوراه دولة موسومة بـ: **"علم اللسان العربي وعلم اللسان العام"** في 1000 صفحة بحيث ناقشها سنة **1979** ونال بها جائزة الملك فيصل سنة **2010.**

نجدها ممتدّة من صاحب **"الكتاب"** سيبويه (ت:180ه) إلى آخر نحوي عرفه التاريخ قد يكون **الأشموني** (ت:929ه) وقد يكون **الصبّان** (ت:1206هـ). وهي نظرية نحوية علمية عملاقة، أصّل فيها لأصالة النحو العربي في قرونه الأربعة الأولى وقاربها بالدراسات اللسانية المعاصرة، ومنها خرج مشروع الذخيرة اللغوية العربية.

---

[1] الدروس النحوية: حفني ناصف، وآخرون، دار إيلاف الدولية، الكويت، ط1، 2006، ص: علي الطنطاوي ذكريات 155/1

[2] الكفاف، ص:17، 18.

ومهما يكن؛ فإنّ كل هذه الدراسات التي بحثت في العربية وحتى الدمغات العلمية الحقيقة كالتي أثبتنها لـ:**تمام حسان** و**الحاج صالح** هي بطريقة أو بأخرى هي إثارات علمية للتراث اللغوي العربي، فكل صيدهم انطلق من جوف التراث العربي.

بل حتى الدراسات اللسانية الغربية التي بحثت في العربية حديثا وهي تعد بالعشرات اعترفت بـ:مكانة علماء العربية القدامي، والدليل كتاب:"**محاسن العربية في المرآة الغربية**"، لديفيد جستس الأمريكي، نشره سنة **1987**، وكتاب "**لغات الجنّة**"، لموريس أولندر الفرنسي، نشره سنة **1989**، أما اللساني الاسكتلندي (مايكل كارتر) في بحثه "منهج التحليل النحوي عند سيبويه"، فقد رأى فيه أنّ سيبويه لو عاش في هذا العصر لاحتلّ منزلة وسطا بين (دي سوسير) و(بلومفيلد).

❖ كيف تعرّف اللّغويون العرب على فردينان دو سوسير؟

معلوم أن تاريخ اللسانيات الحديث يبدأ بمحاضرات العالم السويسري فردينان دي سوسير، الذي عاش ما بين (**1857-1913**)، وإذا أردنا أن نقرّب شخصية فردينان دي سوسير إلى القارئ العربي المهتم: فإنه سيبويه اللسانيات في أروبا، لم ينشر كتابه بنفسه، وإنما كان أَمَالي دوّنها تلامذته الذين حضروا دروسه، وبادر اثنان منهم إلى نشرها بعد موته، في كتاب سموه:"دروس في اللسانيات العامة"، ونشأت حول محاضراته حركة لغوية عارمة فكانت.

ولقد تميزت محاضراته التي نشرت سنة **1916**، بأوّليات ريادية في مجال علم اللغة، حيث انتهى به الارتياد في مجال هذا العلم البكر، ومن أبرزها أنه فصل علم اللغة عن كل العلوم والاختصاصات التي لا تخضع للفحص العلمي الدقيق، وجعله علما مستقلا بمنهجه يدعى بالمنهج السانكروني الآني، غايته أنه يدرس اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها.

يعتبر **إبراهيم أنيس** (1906-1978)، الرّائد الأول في الدرس اللغوي الحديث، ومعلوم أن كتاب "**الأصوات اللغوية**"، الذي نشره سنة **1941**، هو أوّل كتاب في العالم العربي تبنى المناهج اللسانية الغربية (البنيوية)، والأمر الغريب في هذا الكتاب الرائد أنه لم يشر فيه إلى دي سوسير لا من قريب ولا من بعيد.[1]

[1]

أما إذا جئنا إلى الباحثين السبّاقين الذين أشارو إلى الفكر اللساني لدي سوسير، فهم كالآتي: [1]

1- يعدّ **محمّد مندور**، أول من أشار إلى فكر سوسير على الإطلاق؛ في كتابه "**النقد المنهجي عند العرب**، الذي نشره سنة **1946**، وكذلك في ترجمته لرسالة "**منهج البحث في اللغة**" أنطوان ماييه" التي نشرها سنة **1946** ، بحيث يعتبر هذا التاريخ بداية التهيئة الذهنية في التعريف بمحاضرات دي سوسير استعمل فيها مصطلح "علم اللسان"، فهي أوّل لبنة في الخطاب اللساني التأسيسي عند العرب.

2- **تمام حسان** في كتابه "**مناهج البحث في اللغة**"، الذي نشره سنة **1955**، وهو من كبار الباحثين اللغويين العرب الذين أشاروا إلى فكر دي سوسير والاقتباس منه، ويعتبر هذا الكتاب بحق صيدلية المناهج والأفكار اللغوية العربية.

3- **عبد السلام المسدي**، في كتابه "**الأسلوب والأسلوبية**"، الذي نشره سنة **1977**، بحيث عرض لبعض أفكار دي سوسير اللسانية كمفهوم الآنية ومصطلح الدال والمدلول وأعطى له ترجمة موجزة تعريفا به.

4- **زكريا إبراهيم** في كتابه "**أضواء على البنيوية**"، الذي نشره سنة **1978**، وذلك من خلال"تناول أهم أقطاب البنيوية بالعرض المتقصي لآرائهم وأعمالهم، وهو كتاب عن البنيويين في الدرجة الأولى كان القارىء العربي في حاجة شديدة إليه.

إذن؛ هؤلاء الرجال الأربعة، وهم: ناقدان ولسانيان كان لهم فضل السبق في التعريف بفكر دي سوسير، غير أنّ هناك إشارات خفيفة تضمنت بعض أفكار سوسير، في المراجع التالية، وهي: [2]

- كتاب "**علم اللغة**" لمحمود السعران، الذي نشره **1970**.
- مقال "**أصول البنيوية في علم اللغة، والدراسات الأثنولوجية**"، لمحمود فهمي حجازي الذي نشره سنة **1972**.

1

2

- **"نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث"**، لنهاد الموسى الذي نشره **1980**.

غير أن هناك شيئا مغمورا عن **عبد الرحمن الحاج صالح** لم يلق البحث والتفتيش عنه حتى الآن، وهو أنه نشر فقرات مترجمة من كتاب دي سوسير في بحث له بعنوان **"مدخل إلى علم اللسان الحديث"**، في مجلة "اللسانيات" التي تصدرها جامعة الجزائر، سنة **1972**.

وقد ذكر عبد الرحمن الحاج صالح في مجلة اللسانيات في أوائل **العقد السابع**، أنه يعكف على إعداد الترجمة الكاملة لمحاضرات دي سوسير في علم اللغة العام". غير أن ترجمته هذه مفقودة، وغير متداولة في الساحات العلمية، ولهذا لم نشر إليه مع اللغويين الأوائل اللذين عرّفوا بفكر السوسري اللساني وترجموا عنه.

- **تلقّي مصطلح اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة ؟**

إذا جئنا إلى ترجمة مصطلح لسانيات وإشكاليته؛ فهو وليد عدّة مراحل وملابسات، وقبل إفراز هذا المصطلح كانت **"الفيلولوجيا** هي الأصل الذي تفرّع عنه علم اللغة في أوروبا، فالعبارة التي ألقاها **السير وليام جونز** سنة **1786** في كلنكا في الهند، هي الصيحة التي بدأت الزحف في حلبة علم اللغة، فكانت نشأة هذا الأخير **من منطلق الفيلولوجيا** فأضاف علم اللغة للفيلولوجيا فكرتين وهما: **الوصف والمعاصرة**، بعدما كان يتحلّى **بالقدم والمقارنة** فقط.

قبل أن يعرف لغوينا العرب المصريين، اللسانيات، عرفوا **الفيلولوجيا الغربية**، إذ أدخل المستشرقون الألمان نمط **التفكير الفيلولوجي** إلى البلاد العربية، وشكلت بحوثهم إطارا مرجعيا لجملة من البحوث والدراسات اللغوية العربية، ونأخذ على سبيل المثال **"فقه اللغة"** لعلي عبد الواحد وافي، يمثل أنموذجا لهذا التأثير الذي نشره سنة **1937** .

لم يتبين اللغوين العرب الفرق بين مجال **الفيلولوجيا** بالمفهوم الغربي، وبين المفهوم العربي الذي ورثوه عن العرب القدماء الذي يعرف بفقه اللغة، والذي نجده مثلا عند ابن فارس (تـ:395ه) في كتابه **"الصاحبي"**، وقد وقع في هذا خلط، بدءً بـــ:علي عبد الواحد وافي، حين ترجموا مصطلح **philology بـ:فقه اللغة**، أما الذين جاوءا بعده حددوا مجال **فقه اللغة ومجال علم اللغة**، أمثال محمود السعران في كتابه **"علم**

اللغة مقدمة للقارئ العربي"، الذي نشره سنة **1962** و كمال بشر في كتابه **"دراسات في علم اللغة"** الصادر سنة **1969**، وفهمي حجازي في كتابه **"علم اللغة العربية"** الذي نشره سنة **1970**.

واعرضو عن مصطلح فقه اللغة فقط، واستخدموا **علم اللغة** مقابلا لمصطلح **Linguistique / Linguistics** في أغلب التصانيف اللسانية المبكرة، إذا جعله د، عبد الواحد وافي، عنوانا لكتابه الثاني الذي ألفه بعد **"فقه اللغة"** الذي صدر سنة **1937**، وهو كتاب **"علم اللغة"** الذي نشره سنة (1941).

وبعد هذه التسمية جاءت تسمية **علم اللسان** على يد **محمد مندور** سنة **1946**، ثم ظهر مصطلح **الألسنية** الذي وظّفه **صالح القرمادي** قاصدا به علم اللهجات عندما نشر ترجمته لكتاب جان كانتينو **"دروس في علم الأصوات العربية"** سنة **1966.** واستخدمه في محتواه.

ويعتبر الأب مرمرجي الدومينيكي أول من استعمل مصطلح **"الألسنية"** في أبحاثه التي نشرها تحت عنوان **"المعجمية العربية في ضوء الثنائية والألسنية السامية"**، سنة **1937**.

وبقيت الحال هكذا في تأرجح المصطلح اللساني بين عدة مسمّيات، بِدأً من **مندور**، وقبله **الأب مرمرجي الدومينيكي**، إلى أن جاءت الندوة الدولية التونسية المسماة بـ:**الألسنية واللغة العربية"**، المنعقدة سنة 1978.

ولقد حضرها أبرز اللّغويين العرب أمثال المسدي، وتمام حسان، وأحمد مختار عمر، وفهمي حجازي...الخ، والنتيجة كانت أن رجال هذه الندوة اتفقوا على مصطلح **"اللسانيات"** نهائيا. أما الممتثلين بعد هذه الندوة، كان منهم **حمزة المزيني** في السعودية، **ومازن الوعر ومنذر العياشي** في سوريا، **ومجيد الماشطة** في العراق.

أما الباحثين الذين لم يمتثلوا فهم تمام حسان واستعمل مصطلح علم اللغة في كتابه **"الأصول"** الذي نشره سنة 1981 ، أما أحمد مختار عمر؛ لم يمتثل بتوصيان الندوة واستعمل مصطلح **"الألسنية"** ونشر بحثا بعنوان :**"المصطلح الألسني العربي وضبط المنهجيّة"**، سنة **1989**، ومن تبريراته مايلي:

1- مادام أنّ علم اللغة الحديث يدرس أية لغة، فالأنسب له لفظ الجمع "ألسن" لا المفرد "لسان".

2- التصرّف في لفظ **"ألسنية"** أسهل من التصرف في لفظ **"لسانيات"** فحين نأخذ الصفة من الأول نقول: **دراسات ألسنية**، وحين النسبة نقول: **ألسني**، بإبقاء الجمع على حاله. وليس من المستساغ أن نقول **"دراسات لسانياتية"**، ولا **"لسانياتي"**.

أما في الجزائر، أوّل من سمّى علم اللغة باللسانيات هو عبد الرحمن الحاج صالح في عام **1969**، غير أنّه لم يكن حاضرا في هذه الندوة التونسية؟

وجملة القول؛ أن مصطلح **"علم اللغة"**، هو أكثر الألفاظ الثلاثة شيوعا رغم محاولات الترويج لأحد المصطلحين، **"اللسانيات"**، و**"الألسنية"**، وبتحليل عناوين الكتب والأبحاث العربية في ميدان علم اللغة الحديث، رأى أنه يصل عددها إلى نحو **50 بحثا**، بحيث، نجد:

- 25 بحثا استعملت مصطلح **علم اللغة.**
- **10** بحوث استعملت مصطلح **لسانيات.**
- **5** بحوث استعملت مصطلح **ألسنية**.
- **10** بحوث تنوعت في استعمال؛ **علم اللسان، الدراسات اللغوية، البحث اللغوي**.

وهذه الإحصائيات كانت في سنة **1989**، بمعنى أنه لم يستتبّ الأمر بعد لمصطلح لسانيات حتى هذه السنة.

- **الـــترجـمـات الـــــعـــربية لـــ: مـحاضرات فردينان دي سوسير** :

قبل أن نقف على التراجم العربية الخمس لكتاب سوسير يجدر الإشارة؛ إلى الكتب اللسانية التي ترجمها اللغويون العرب قبل كتاب دي سوسير، على سبيل المثال، نأخذ كتاب:**"اللـــــغـــة"**، لـ:**جوزيف فندريس** اللساني الفرنسي -وهو تلميذ أنطوان ماييه-، تاريخ نشره أول مرة بلغته الأصل الفرنسية كان سنة **1920**، وترجمه: **محمد القصاص، وعبد الحميد الدواخلي** إلى العربية، سنة **1950**، ولم يترجم هذان الرجلان **محاضرات سوسير** الأهم من كتاب **"اللغة"**، في هذا التاريخ المبكر لكان أفضل للسانيات العربية الحديثة.

لننظر كذلك كم من الكتب اللسانية التي ترجمت للعربية قبل كتاب سوسير، نجد منها:

1- **اللغة بين الفرد والمجتمع: لجسبرسن**، ترجمه: **عبد الرحمن أيوب**، سنة **1954.**
2- **اللغة في المجتمع: للويس**، ترجمه: **تمام حسان**، سنة **1959.**
3- **دروس في علم الأصوات العربية**: لكانتينو، ترجمه: **صالح القرمادي**، سنة **1966.**

4- **البنيوية**: لجان بياجيه، ترجمه: **عارف منيمنة وبشير أوبري**، بيروت، سنة **1971.**
5- **أسس علم اللغة**: ماريو باي، ترجمه**: أحمد مختار عمر**، ليبيا، 1972.
6- **تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى ق 20**: لجورج مونان، ترجمة بدر الدين القاسم، سنة 1972.
7- **الأثروبولوجيا البنوية**: كلود ليفي ستراوس، **محمد صالح**، دمشق، 1977.
8- **البنيوية**: لجان ماري أوزياس، وأخرون، ترجمه: ميخائيل إبراهيم، دمشق، 1982.

ومهما يكن فلقد تعرّف اللغويون العرب على محاضرات **دي سوسير** في وقت متأخر، مقارنة بالثقافات الأجنبية الأخرى فقد كانت أسبق من العرب، وكما هو معروف أن محاضراته نشرت سنة **1916**، بحيث ترجم محاضرات دي سوسير؛

- إلى اليابانية في عام **1928**، وإلى الألمانية في عام **1931**، وإلى الروسية في عام **1933**، وإلى الإسبانية في عام **1945**، أما الإنجليزية فتأخر ظهور الترجمة فيها إلى **1959**، وهي الترجمة الوحيدة المعتمدة، وإلى البولونية عام **1961**، ثم نقل إلى اللغة الإيطالية عام **1967**.

في حين تأخرت ترجمة الكتاب إلى العربية لتظهر تقريبا بعد **سبعين عاما** من صدور الكتاب في خمس ترجمات متتالية، وهي :

- **الترجمة اللبنانية**، موسومة بـ:" **محاضرات في الألسنية العامة**، ترجمة د.مجيد النصر، ويوسف غازي ، سنة **1984.**
- **الترجمة المصرية** موسومة بـ:"**فصول في علم اللغة العام**"، لأحمد نعيم سنة **1985.**
- **الترجمة التونسية** موسومة بـ:"**دروس في الألسنية العامة**"، لمحمد الشاوش، ومحمد عجينة، سنة **1985**.
- **الترجمة العراقية** موسومة بـ:"**علم اللغة العام**"، يوسف عزيز، ويوسف المطلبي، سنة 1985.
- **الترجمة المغربية** موسومة، بـ:"**محاضرات في علم اللسان العام**، لعبد القادر قنيني، وأحمد حبيبي، سنة **1987.**

ومهما يكن؛ فإنّ هذه التراجم الخمسة تعتبر تجارب لسانية تعريفية وتمهيدية في الثقافة العربية الحديثة، ولو ترجمت محاضرات دي سوسير في تاريخ الذي ترجم فيه كتاب **"اللغة"** لجوزيف فندريس إلى العربية سنة 1950 لكان أنسب وأنفع.

ولو ترجمت محاضراته في الوقت الذي ترجمت فيه إلى اليابانية سنة **1928** كأول ترجمة في العالم، لكانت هذه الترجمة بالنسبة للثقافة العربية الحديثة **لحظة أرخميدس**. عندها لا يتحيّف اللسانيون الأوائل العرب الطريق الصحيح، ولاختصرت المسافات ونيلت المقاصد في استيعاب المنجز اللساني الغربي الحديث.[1]

فلما تأخرت الثقافة العربية في ترجمة الكتاب **سبعين سنة** دفعنا ضريبة هذا التأخر بأن حدث لنا إشكالا في تلقّي اللسانيات وفهمها، واعتبارها ترفا فكريا، بينما هي تدرس **اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها**، والتي لقد قال عنها العالم الأنثربولوجي، **كلود ليفي ستراوس**:"أن اللسانيات بفضل توجهها العلمي، ستصبح جسرا تعبره كل العلوم الإنسانية الأخرى إن هي أرادت أن تحقق نصيبا من العلم".

1

- **أندري مارتنيه (1908-1999)** صاحب كتاب:**"مبادئ في اللسانيات العامّة":**

صدر أول مرة سنة 1960 بلغته الأصل الفرنسية، ويعتبر أول كتاب أوضح مفهوم اللسانيات في أوروبا، بل "اعتُبِرَ على مدى عقود خمسة ألفباء اللسانيات العامة وكتابها الأوحد".[1] وقد ترجم إلى أكثر من 17 لغةً، وترجم للعربية، سنة 1984.

يرى **أندري مارتيني André Martinet** أنّ الوظيفة الأساسية للغة هي التبليغ بين أفراد المجتمع بدرجة أساس، أما الوظائف الأخرى كالوظيفة التفاعلية، أو البيانية، أو التخيليّة، فهي وظائف ثانوية. ويرى أنّ اللغة عبارة عن تمفصل مزدوج **double articulation**، وهذا التمفصل يتجلى في **المورفيمات (الكلمات)**، وهي أصغر وحدة دالة لها معنى، و**الفونيمات (الحروف)**، وهي أصغر وحدة صوت، لها شكل كلامي صوتي، غير دالة ليس لها معنى.

✓ **أولا: الوحدات الصغرى الدالة المورفيمات (الكلمات):** [2]

فهي تعرف بدَلالتها التامة أو الجزئية التي تتضمَّنها، فالكلمات من ضمن هذه الوحدات، وكذلك الجذور والجذوع، فالجذور سِمة **الألسن الاشتقاقية**[3]، والجذوع سِمة **الألسن الإلصاقية**، وتشمل هذه الوحدات:

- **حروف المعاني؛** مثل: حروف الجر والنفي والنهي والإستقبال.
- **سوابق؛** مثل: حروف المضارعة (**أنيت**: تكتب، يكتب، أكتب، نكتب).
- **لواحق؛** مثل: علامات التأنيث وياء النسبة.
- **دواخل؛** مثل: العلامات الدالة على التصغير والتكسير.

---

[1] وظيفة الألسن وديناميتها، ص:18.

[3] **اللغات الاشتقاقية** (أكثر اللغات تعبيرا عن الأفكار الإنسانية) حيث يُصَرف الجذر (المصدر) حسب أوزان معينة لاشتقاق معان قريبة من الجذر، ومعظم الكلمات فيها ليست ثابتة؛ **كالعربية مثلا.**
وفي اللغات العازلة كالصينية مثلا كل كلمة تمثل فكرة بعينها، وهي لغات التي لا تصرف جذورها ولا يضاف إليها حروف جر أو ضمائر أو ما شابه، كلماتها لا تقبل الدمج، وهي أكثر قدرة في التعبير عن الوجدان لذلك نجد الأعمال الأدبية الصينية الكلاسيكية أكثر تعبيرا عن الأفكار الخالصة المجردة والروحانية.
اللغات الإلصاقية من اللغات التركيبية التي تتميز بثبات المورفيمات المكونة لكلماتها، منها اللغة التركية لأنها تعتمد على إضافة لواصق إلى الكلمة لتغيير دلالتها المعنوية أو القواعدية مما يؤدي إلى تكوين كلمات طويلة قد تعادل واحدة منها أو اثنين منها جملة كاملة في اللغة العربية.

وتشمل عمومًا كلَّ العلامات الدالة على الجنس والعدد والتعريف والتنكير، وغيرها، وتشمل **القرائن الدالة؛** من نحو علامات الإعراب، والضمائر المتصلة بالأفعال، أو الأسماء، أو الصفات. وهذه الوحدات قد تكون وحدات **حرة مستقلة،** نحو كلمة "قلم" مثلًا، وقد تكون **وحدات مقيدة؛** أي: لا تَرِدُ في سياق الكلام إلا مجتمعة أو متصلة بغيرها، ولا معنى لها في حد ذاتها، وذلك من نحو **السين** أو **سوف** الدالتين على الاستقبال، أو تاء التأنيث في الأسماء أو الأفعال، أو الألف واللام علامة التثنية، وقِسْ على ذلك. وهذه الوحدات في مجمل الكلام تُمثِّل كلها التقطيع الأول الذي يكون ملازمًا لها، وكل هذه الوحدات باختلاف قيمتها اللسانية ينسحب عليها مصطلح الدليل اللساني المشتمل على الدال والمدلول.

✓ ثانيا: الوحدات الصغرى غير الدالة الفونيمات (الحروف):[1]

وهي الوحدات الصوتية الدنيا؛ أي: الفونيمات phonemes، والفونيم يشمَل الوحدات الصوتية المميزة في لسان ما، وتشتمل الفونيمات على **الصوامت** أو السواكن، مثلما تشتمل على **الصوائت؛** أي: الحركات (الحركات الإعرابية)، ويكون الفونيم مميزًا في لسان ما إذا تقابَل مع فونيم آخرَ في كلمة ثانية، وتكون الكلمتان مختلفتين ذات دلالتين مختلفتين أو أكثر، وذلك من نحو قولنا: تين، بالتاء، وطين، بالطاء، وبالتالي فإن كلا الفونيمين" التاء "و"الطاء "هما فونيمان متمايزان، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الصوائت أو الحركات الإعرابية، وذلك كالتمايز الموجود في الفتحة والكسرة في أمثلة من نحو: "سِنة (الغفوة)" و"سَنة"(عام) مثلًا.

✓ مثال توضيحي على التقطيع المزدوج:

إنّ المستوى المونيمي (الكلمات) قابل للتمفصل إلى وحدات صوتية أصغر غير دلالية بحد ذاتها (**فونيمات: حروف**)، فالوحدات الصوتية **(ك، ل، م)** مثلا وظيفتها تمييز الكلمات مثل **(كلم – ملك – لكم-كمل)** التي هي من عناصر مستوى التمفصل الأول، فإذا أخذنا عبارة: **j'ai mal à la tête** فهذه الجملة تحتوي على ستة وحدات دلالية وهي على التوالي:

[1] انظر الرابط التالي: https://www.alukah.net، التقطيع المزدوج:د. عبد الحميد النوري، تاريخ الإقتباس: 2019/11/04.

j – ai – mal – à – la – tête

فكل وحدة من هذه الوحدات يمكن أن تحلل إلى عدد كبير من الوحدات المتميزة: فالوحدة الدلالية mal مثلا تحلل إلى ثلاث وحدات متميزة: m/a/l وهذا ما يسمى بالتمفصل الثاني، فهذه الوحدات المتميزة لها شكل كلامي صوتي، ولكن ليس لها دلالة في حد ذاتها.

إنّ التلفظ المزدوج معناه أنه باستطاعة المتكلم تفكيك النصوص وتحليلها إلى وحدات صغرى تحمل دلالة، وهذه الوحدات بدورها تنقسم إلى وحدات من نوع آخر، صغرى لا تحمل دلالة وإنما تؤدي وظيفة تميزية.

أي أنّ **الفونام** يميز بين المونيمات كقولنا: قام ونام، فالقاف في قام وحدة تمييزية ميزت المونام قام عن المونام نام، وكذلك النون، وهذا عكس **الألوفون**[1] الذي لا يعتبر وحدة تمييزية، لأنه خاص باللهجات وتغييره لا يغير المعنى، كقولنا: القتل في الفصحى والكتل في لهجة جيجل مثلا والأتل في لهجة مصر المعاصرة، فالقاف قوبلت بالكاف والألف دون تغير في المعنى، وندعو كل من الكاف والألف في هذه الحالة **بالألوفون**.

- **فائدة التقطيع المزدوج:** [2]
- يفيدنا في التحليل اللساني أي في التمييز بين التقطيعات الدالة وغير الدالة.
- يفيد اللغة بحيث يسمح بتحقق العملية الإبداعية والتوسع، ويجعل اللغة نظامًا مفتوحًا.
- يحقق التلفظ المزدوج الاقتصاد في اللغة؛ حيث إن عدد الفونيمات 30 فونيما في أغلب لغات العالم تعطينا يعطينا عشرات الآلاف من (الكلمات) التي بدورها تعطينا عددًا لا نهائي من الجمل والتعابير.
- يسهّل التلفظ المزدوج عملية التخزين اللغوي في مخ الإنسان، فإذا تصوَّرنا أن مفردات العربية تقدر بـ:**مليون كلمة**، فإنّ المتكلم المثالي يستطيع امتلاك **900.000 كلمة** في هذه الحالة، فمحدودية الفونيمات (34 فونيمًا في العربية)

[1] الألوفون Allophone مصطلَح صوتيّ يدلّ على مظهر من مَظاهِرَ متعدّدة للفونيم الواحد أي للصّوتِ المُطلَق الواحِد، وكلّ ألوفون شكلٌ [أو تنوع أو تَجَلٍّ] من أشكالِ [أو تنوعات أو تَجلّياتِ] الصّوت الواحد.

[2]

هي التي سهّلت عملية التخزين اللغوي ولو كانت اللغة غير ذلك لصعب احتواؤها.

- التقطيع المزدوج هو سمة عامة لكل الألسن البشرية، أما لغة الحيوانات لا يمكن تفكيكها إلى وحدات، وكذلك إشارات اليد وإشارات المرور لا يمكن تحليلها إلى وحدات.

- **الفرق بين لغة الإنسان ولغة الحيوان:**

رغم أن اللغة الصوتية هي الوسيلة الإنسانية الشائعة بين الأمم، إلا أنّ الإنسان استخدم بجانب ذلك وسائل اتصالية غير كلامية، بعضها قد يصاحب الكلام وبعضها الآخر مستقل عنه، مثلا الرسوم والإشارات والإيماءات بأعضاء الجسم، والنار والدخان، فالعربي قديما يشعل النار ليبدي استعداده لاستقبال الضيوف، والرجوج (الطبل) للبدء في الحرب، والبوق كان يستخدمه اليهود للدعوة إلى صلواتهم في الكنيسة، وحديثا نستعمله في السيارات، وكذلك الصفارات والإنذرات، وكذلك الأصوات غير اللغوية لزجر الحيوانات.[1]

يرى **فخر الدين الرازي** أنّ الإنسان استعمل الصوت كوسيلة للتعبير والتواصل مع الآخرين بدرجة أساس، لأسباب التالية:

- إدخال الصوت إلى الوجود عن طريق النفس أسهل من إدخال غيره وفيه مشقة.
- كما يدخل في الوجود بسهولة ينقضي بمجرد استعماله، أما سائر الأمور الأخرى فإنها قد تبقى ويطلع عليها من لا يراد اطلاعه.
- إنّ استخدام الصوت عند الإنسان لقدرته على التعبير عن المعدوم والغائب وغير المرئي واللون والذوق...الخ.
- الصوت يمكن الإشارة به إلى المعاني المتعددة في الشيء الواحد كلون التفاحة وطعمها بينما يتعذر ذلك بالإشارة.
- الصوت يمكن استعماله في الظلام ومن وراء حجاب بينما الإشارة لا يمكن استخدامها إلا مع وجود النور وإمكان الرؤية.

[1] انظر: الاستراتجيات الحديثة لتعليم وتعلّم اللغة: أ.د. علي عبد السميع قورة (قسم المناهج وطرق التدريس، كلية التربية جامعة المنصورة) د. وجيه المرسي أبو لبن (قسم المناهج وطرق التدريس، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر)، مطبوعة بيداغوجية، ص: 12، 13.

- الصوت كان وسيلة لطلب النجدة للإنسان، فلو كان لا يستخدم الصوت لانقرض النوع الإنساني لأنه كان مهدد من الكائنات الأخرى والتي تدب في الليل الحالك.

إن كل الكائنات الحيّة تتواصل فيما بينها بلغات وكل فصيلة لها لغتها الخاصة بها، وكل ما في الأمر أن لغتها تفقد ما أسماه **أندري مارتيني** التمفصل المزدوج الذي هو ظاهرة صوتية ودلالية بشرية، فلغة النمل أو النحل مثلا لا تقبل التحليل إلى أصغر وحدة دالة (مونيمة) ولا إلى وحدات صوتية تمايزية غير دالة (فونيمة)، فلغة الحيوان أو الطير لا تقبل القسمة على اثنين، وهي تواصل لغوي خارج طاقة البحث اللساني لتحديده، وتنوع اللغات الحيوانية والأشياء التي لا نفقهها،كما أخبرنا القرآن كما في قوله تعالى:"**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**"، (الإسراء:44)، تنوّع لا يختلف عن تنوع لغات الإنسان، لكن لكل حدوده ومجالاته.[1]

يرى **كلاينبرج أوتو Klineberg** "أن الفرق الجوهري بين لغة الإنسان ولغة الحيوان وهو أن الحيوانات (أنعام وطيور وحشرات..) لا تستطيع التعبير إلا عمّا هو **حاضر وآني**، لأنها تصدر حركاتها على أنها **رد فعل لحالة انفعالية حاضرة** ولا تقيد معان رمزية أو مجردة. أما لغة الإنسان متحررة من سجن الحاضر ويستطيع أن يعبّر عن كل شيء وفي أيّ وقت".[2]

أما استخدام الصوت عن الحيوان فهو لردة فعل حاضرة فقط لتدل عن حالة نفسية ما كالفرح أو الخوف أو الجوع مثلا، ولهذا لغته لا تحمل أفكارا وإنما تعبير عن غرائز وميولات.

إذن؛ فالفرق الحاسم بين اللغتين وهو أن اللغة الحيوانية **لغة إشارية عقيمة جامدة عاجزة عن اكتساب معاني جديدة، تظل ملتصقة بالموضوع الذي وضعت منذ بداية تشكلها للإشارة إليه**، لأنّ المجتمع الحيواني نشاطه بسيط ومحدود، وليس فيه ما يدعو

[1] انظر: علم اللسان الحديث، ص:25، 26.

[2]

إلى ابتكار إشارات جديدة. أما اللغة الإنسانية فعلاماتها متحرّكة، قادرة على اكتساب معاني جديدة لطبيعة المجتمع الإنساني المتحرّك.[1]

- **فرادة اللغة البشرية عند تشارلز هوكيت:**

لقد وضع اللغوي الأمريكي **تشارلز هوكيت**[2] مجموعة من السِمات الخاصة باللغة البشرية، وأسماها:**"السِمات التصميمية"**، بلغ عددها **ثلاثة عشر** سمةً، فالسِمات **التسعة الأولى** قد تكون مشتركة بين اللغة البشرية بصورتها المنطوقة لا المدونة، وأنظمة التواصل لدى بقية الكائنات الأخرى، في حين انفردت لغة الإنسان استثنائيا بـ:**أربعة** سِمات هي الأخيرة في قائمة (**هوكيت**)؛ وهذه السِمات هي كالأتي:[3]

1- **اللغة قناة صوتية سمعية Vocal-Auditory Channel**: يتم تنفيذ الكثير من اللغة البشرية باستخدام القناة الصوتية أي ليست إشارية، والقناة السمعية أي أنّها تُسمع.
2- **اللغة ذات بث منقول وتلقّي اتجاهي Broadcast transmission and directional reception**: أي أنّ المستمع لديه القدرة على تحديد مصدر الصوت واتّجاهه بكلتا الأذنين.
3- **اللغة ذات كيان سريع الزوال Rapid Fading (transitoriness)**: بمعنى تتبدّد أشكال الموجة اللغوية بمرور الوقت ولا تستمر، فاللغة لا تحكمها صورة ولا حيّز مادي أثناء الكلام.
4- **التبادلية Interchangeability**: بمعنى أنّ المتكلم في التواصل اللغوي يستطيع أن يتحوّل إلى مستمع، والعكس صحيح.
5- **التغذية الارتدادية التامة Total Feedback**: يستطيع المتحدثون سماع أنفسهم يتحدثون ويراقبون إنتاجهم للكلمات ويستوعبون ما ينتجونه من خلال اللغة.
6- **التخصصية Specialization**: أصوات اللغة البشرية متخصصة في التواصل لنقل الأفكار والانفعالات.

---

[2] تشارلز هوكيت (1916- 2000) عالم لغوي أمريكي طور العديد من الأفكار المؤثرة في اللغويات الأمريكية البنيوية.

[3]

7- **الدلالية Semanticity**: بمعنى أنّ اللغة لها خاصية تقديم المعنى، يمكن أن تكون متطابقة مع إشارات محددة مع معنى معين.
8- **الإعتباطية Arbitrariness**: بمعنى أنّه ليس ثمة علاقة طبيعية بين العلامة اللغوية وما تدل عليه، فكلمة منضدة مثلا لا تحمل بمكوناتها الصوتية أو الصرفية شيئا يجعلها توحي بهذا المسمى الذي تطلق عليه.
9- **التمايز Discreteness**: أي أنّ اللغة لها خاصية الاختلاف المطلق بين وحداتها، فصوت الهاء في "هرب"، غير صوت "الضاد"، في ضرب، فالوحدتين "هرب وضرب"، متمايزتان صوتيا ودلاليا.
10- **الانزياح Displacement**: بمعنى أنّ النظام اللغوي عند البشر يستطيع أن التواصل مع الفضاء الخارجي، أو التحدث عن أشياء غير موجودة.
11- **الإنتاجية Productivity**: بمعنى أنّ اللغة البشرية لها خاصية الإبداعية بحيث من عدد محدود من الكلمات توليد وفهم عددا غير محدود من الجمل والتراكيب والعبارات.
12- **الإنتقال الثقافي Cultural Transmission**: بمعنى أنّ اللغة تنتقل من جيل إلى جيل عن طريق التعليم والتعلّم وليس بالغريزة.
13- **ثنائيّة التنميط Duality of patterning**: يقابله هذا المصطلح؛ التمفصل المزدوج عند **مارتيني** أي يتم الجمع بين الأجزاء الصوتية من مورفيمات وفونيمات لتكوين كلمات ذات معنى، والتي بدورها يتم دمجها مرة أخرى لإنشاء كلمات وجمل أخرى

يرى **هوكيت** أنّ **"الانزياح، والإنتاجية، والانتقال الثقافي، وثنائية التنميط"**، تقتصر على اللغة البشرية فحسب؛ وأنّ بقية الميزات الأخرى قد نجدها في آليات التواصل عند الكائنات الأخرى، ثم أضاف ثلاثة سِمات أخرى, ليصبح عددها إجمالاً ستة عشر, وهي:[1]

1- **"المواربة Prevarication** أو المرواغة: بمعنى أنه يمكن أن يقول المتكلم الباطل، وعبارات لا معنى لها.

[1]

2-**الانعكاسية Reflexiveness:** تعني أنّنا نستطيع التكلّم باللغة عن اللغة، فنقول مثلا: الكلمة، منها: الاسم والفعل والحرف. وكلمة رجل تتكون من ثلاثة صوامت.

3-**التَعَلُمِيَة Learnability**: تعني التعلمية أنّه لدينا القدرة على التعلم: يمكن لمتكلم اللغة تعلم لغة أخرى.

كما أضاف بعض اللغويين المعاصرين ثلاثة سمات أخرى ليصبح العدد 19، وهي:**"السيطرة، والتبعية البنيوية، والدَورْ".**

ويرى (هوكيت) أن اللغة تختلف عن التواصل، إذ تقتضي اللغة توافر جميع هذه السمات **الستة عشر** في بنيتها دون استثناء, في حين تفتقر جميع الأنظمة التواصلية لدى الحيوانات, وإن بدا بعضها غاية في التعقيد والتطور, إلى بعض هذه السمات وتشتمل على البعض الآخر.

- **تفكيك النظرية اللغوية لتشومسكي (خلفيات ونتائج) :**

لقد استبعد تشومسكي أن يكون العقل صفحة بيضاء وقت الولادة، ووجدت مقاربته هذه قبولا واسعا، وخاصة عند **ستيفن بنكر** في كتابه:**"الغريزة اللغوية"**، عندما عدّ اللغة شيء مبرمج في صميم الطبيعة البشرية، غير أنّ **تشومسكي** كان متأثّرا[1] بـ:**ديكارت** (1596-1650) الذي يرى أنّ المعرفة تأتي من داخل العقل وليس من خارجه، وهذا الطرح نجده كذلك في فلسفة **كانط** (1724-1804) الذي يرى أنّ كل ما ندركه مصنوع في ذهننا، والحقيقة أنّ هذه الأفكار هي محدوسة من **نظرية المثل لأفلاطون** التي يعني بها أنّ عالم ما قبل العالم الحسي، كان فيه الإنسان على علم بجميع العلوم والخفايا، وحينما يولد يكون قد نسي كل هذه العلوم، وما عليه إلا أن يتذكّرها في العالم الحسّي.

غير أنّ هناك فرقا بين مقاربة **تشومسكي** حين اعتقد أنّ ملكة اللغة **Faculty of Language** ترجع إلى القدرات الداخلية للبشر، وتَوَهَّم أن الإنسان يولد مزوَّدا بعضو للغة مثل جناح البعوضة، وأنّ نمو المعرفة أشبه ما يكون بنمو الفاكهة، وأنّ نضجها يعود أوّلا إلى قوّة الشجرة وميزتها فهي التي تمدها بالعصائر، أما الأسباب الخارجية من ماء وهواء فهي مساعدات فقط. أما مقاربة **ديكارت** في تفسيره للمقدرة اللغوية فيراها بأنّها وظيفة الروح غير المادية التي ضمها الله إلى أجسادنا.

غير أنّ طرح **تشومسكي** توّهم فيه كثيرا وشطح به الخيال العلميّ في غباوة علميّة لسانية تعجّبت منه بعض الطروحات العلمية واللسانية المحقّقة، منها:[2]

- أنّ تشومسكي كان يتعارض مع الاتجاه السلوكي في علم النفس الذي يرى أنّ اللغة عملية سلوكية لا تختلف عن أي ظاهرة طبيعية أخرى، فهي تخضع لمبدأي المثير Stimulusوالإستجابة Response، فاللغة ردود فعل لمثيرات حسية خارجية لا دخل للعقل في تكوينها.
- وكان يتعارض مع نظرية **جان بياجيه** التكوينية، التي يرى فيها أنّ ارتقاء الكفاءة اللغوية نتيجة التفاعل بين الطفل والبيئة.

---

[1] لقد كان تشومسكي ديكارتيّا في كثير من طروحاته اللغوية، فمن مؤلفاته، التي تدل على ذلك، كتابه:"اللسانيات الديكارتية"، الذي نشره سنة 1966.

[2]

- وكما يتعارض مع طرح الفيلسوف **ليف فيجوتسكي،** الذي يرى في كتابه:**"الفكر واللغة"**، أنّ الفكر اللفظي هو عملية ثقافية وليس طبيعة فطرية.
- أما البروفسور **كريس نايت** صاحب كتاب:**"تفكيك تشومسكي"**، استغرب كيف تمكن تشومسكي من السيطرة على الفكر الغربي منذ الستينات بأفكار مثل هذه ؟!
- أما البرفيسور **تيرنس ديكون** صاحب كتاب:**"الإنسان..اللغة..الرمز"**، رأى فيه أنّه لو كان هناك عضو للغة في مخ الإنسان، لما انتشرت العمليات اللسانية في مناطق متنوعة من قشرة المخ.
- أما **علم الأعصاب** فقد حَسَم الخلافَ وقوَّض وهم وجود عضو مادي للغة في دماغ الإنسان أو جسمه.

أما السبب الحقيقي الذي جعل العقول العلمية تتشرب فكرة وجود عضو مادي للغة، فهو بسبب المكانة الكارزمية لـ:**تشومسكي،** التي ورّطت كثير من اللسانيين في ابتلاع هذه الغباوة العلمية !؟

إنّ اللغة هي نتاج تلقائي رغم تعقّد نظامها وكثافة علاقاتها، بحيث يتبرمج بها الدماغ الإنساني بقابلياته الفارغة وأجهزته العجيبة فيقوم بتشرّبها تشرباً تلقائياً بالمحاكاة والمعايشة والتفاعل المباشر مع الناس، ثم يقوم الدماغ بعد ذلك بالفرز والتصنيف والترميز والتثبيت لهذا المحصول اللغوي، فيتطبع به كنظام وليس كمفردات فالتبرمج بالنظام اللغوي تلقائيا هو الذي يؤهّل الفرد فيما بعد أن يفهم ويُفهم اللغة ويركّب الجمُل بأشكال لا حصر لها.[1]

أما الرؤية التي أصاب فيها **تشومسكي** وتعتبر منجزاً حصرياً له، فهي تفسيره لفرادة اللغة البشرية المتمثلة في **آلية التكرار** المدهشة وهي توليد اللامحدود من المحدود. بحيث يعتبر **تشومسكي** أول من أنغمس في دراسة جادة لهذا البعد مستثمراً مفاهيم رياضية صارمة تعود للرياضي البريطاني **آلن تورينغ**.

ومن التوافقات العجيبة أنّ "آلية التكرار" التي تعتبر سر عبقرية اللغة لدى الإنسان، تشبه الجدول الدوري للعناصر الكيميائية في الطبيعة, إذ يحتوي هذا الجدول على **172 عنصرا كيميائيا،** بحيث أنّ جميع الأجسام الحيوانية والنباتية والصخرية في عالمنا تتركب من تشكيلات مختلفة لهذه العناصر. لكن هذا الجدول يختزن إمكانيات أخرى غير مُفَعَّلة حتى الآن وما أن تُكتَشف مركبات أخرى في الطبيعة حتى تجد أنها مجرد تشكيل كيميائي آخر لبعض عناصر الجدول المذكور.

1

- **نظرية وظائف اللغة عند رومان جاكبسون[1]:**

يرى **جاكبسون** أنّ العوامل التي تؤثر في سيرورة الحدث اللغوي ستة؛ وهي: المرسل، والرسالة، والمرسل إليه، والسياق، وقناة الاتصال، والشفرة، والتواصل الإنساني لا يتحقق إلا بتوافر هذه العوامل الست.

سياق

– مرسل: ← رسالة ← مرسل إليه.

اتصال

شفرة

1- **المرسل (المتكلم) Destinateur**: وهو الذي ينتج الرسالة ويقوم ببعثها للمرسل إليه، ومصطلح "مرسل" يطلق على الأجهزة أيضًا، مثل المذياع مثلا.
2- **المرسل إليه Destinataire**: وهو الطرف الذي يستقبل رسالة المرسل، ليقوم فهم الرسالة وفكّ رموزها.
3- **الرسالة Message** : وهي مضمون ما قاله المرسل.
4- **قناة الاتصال Canal**: أي قناة فيزيائية وتواصل فيزيولوجي بين المرسل والمرسل إليه، يسمح لهما بإقامة اتصال والحفاظ عليه.
5- **السنن Code**: وهي لغة التواصل، ويتعرف المرسل إليه على لغة التواصل إذا كان له المعجم اللساني نفسه الموجود لدى منشئ المرسل.
6- **السياق Context**: وهي ظروف الرسالة وسياقها التي قيلت فيها.

1

بناءً على هذه العوامل الستة للحدث اللغوي عمَد **جاكبسون** إلى تحديد ستة وظائف للغة؛ وهي:

- **الوظيفة التعبيريَّة Expressive أو الانفعالية:** وهي ذات حمولة انفعالية عاطفية للمتكلم (**المرسل**)؛ من حيث إنه يبدي انطباعه تجاه شيء ما، ويَكثُر في هذه الوظيفة استعمال الضمائر الشخصية مثل "أنا".
- **الوظيفة الشعريَّة poetique:** هي العلاقة بين الرسالة وذاتها، وتستخدم فيها كلمات مناسبة للمقام، وهي تهيمن على فن الشعر أكثر. وترتبط هذه الوظيفة بـ:**الرسالة.**
- **الوظيفة الانتباهيَّة Attention**: هدف هذه الوظيفة تأكيد الاتصال أو إيقافه، ولها تعابير وأساليب متداولة في الحياة اليومية، مثل: ألو أتسمعني؟ وعادة ما ترتبط هذه الوظيفة بـ:**قناة الإتصال**.
- **الوظيفة الإفهاميَّة Conative**: ترتبط **بـ:المرسل إليه،** ومن مميزات هذه الوظيفة أنه يكثُر فيها أساليب الأمر والنداء؛ لأن كلَّ اتصال غايته الحصول على فعل من هذا المتلقِّي.
- **الوظيفة المرجعية référence**: وهي قاعدة لكلِّ اتصال؛ لأنها تحدد العلاقة بين الرسالة وبين موضوع ترجع إليه، وهي ترتبط **بالسياق**. وغاية هذه الوظيفة هي صياغة معلومة صحيحة عن السياق بموضوعية.
- **وظيفة ما وراء اللغة metalinguistique**: وهي ترتبط **بالسنن،** فهي لغة مفسرة وواصفة للغة ذاتها أي: وظيفة شرح، ومن تعابيرها مثلا: ما الذي تريد ؟...ماذا تقول ؟

إذن؛ فاللغة من منظور جاكبسون ذات بعد وظيفي، وكل عامل من عوامل التبليغ الستة تنشأ عنها وظيفة، **فالمرسل** وظيفته تعبيرية أو انفعالية، **والرسالة** وظيفتها شعرية أو جمالية، **والمرسل إليه** وظيفته إفهامية أو تأثيرية، **والمرجع** وظيفته مرجعية، **والقناة** وظيفتها حفاظية، **واللغة** وظيفتها وصفية.

وإذا أردنا أن نقارب النظرية الجاكبسونية على عملية التبليغ في القرآن، فإن المقاربة تكون على النحو الآتي: **فالمرسل** هو الله جل جلاله، **والمرسل إليه** هو محمد عليه

الصلاة والسلام، **والسياق** هو أسباب النزول، **والرسالة** هي القرآن الكريم، **وقناة الإتصال** هي جبريل عليه السلام، **والشفرة** هي اللغة العربية.

يرى العالم اللغوي **رولاند بارت**[1] (1915-1980) بأن اللغة تقوم بوظيفة سلطوية **Prédominante**، وتتجلى سلطتها إما على مستوى الشكل أو على مستوى المضمون. فعلى مستوى الشكل لا يمكن للفرد أن يمارس اللغة دون أن يخضع لقواعدها، أما على مستوى المضمون فإن تعلم الفرد اللغة يعني استبطانه لمختلف القيم والمضامين الفكرية التي تختزنها اللغة بحيث تصبح جزءا من شخصية الفرد وتمارس عليه سلطة سواء على مستوى القول أو الفعل.

فالمتكلم عندما يتحدث لغة أجنبية فهو خاضع لقواعها وتراكبيها ولمنظومتها الثقافية، حتى وإن كان يوظف هذه اللغة جماليا وفنيّا وأسلوبيّا كيفما يشاء. فلقد اعترف **رشيد بوجدرة** وأقرّ بأنه كان يعيش في اغتراب لغوي وقال:"عندما كنت أكتب بالفرنسية كنت أعيش نوعا من العُصاب بسبب عدم الكتابة بالعربية، في بعض الأحيان كنت تحت وطأة كوابيس أراني فيها فقدت النطق بالعربية".

أما **محمد ديب** الروائي الجزائري فقد عاش مأسأة لغوية حقيقية عندما فقد الإحساس بالأمان، عندما كان يكتب رواياته بالفرنسية على مدى نصف قرن أو تزيد، فاعترف قائلا:"فبقيت كالغجري على أبوابها، وأهلها يخافون منّي، عيونهم مفتوحة عليّ خشية أن أسرق دجاجهم !".

ومن هنا يمكن القول لا يمكن للإنسان أن يتلاءم مع ذاته وهو يبدع بلغة غيره، ولا يمكن للمبدع أن يكون حرّا داخل جهاز لغوي أجنبي، وقيّم الفرد وقيمته في لغته، وإنّ العرب في جاهليتها، كما كانت تفتخر في نسبها إلى قبائلها[2]، كانت تفتخر في نسبها إلى لغتها، فمثال النسب إلى القبيلة، قول **سُحَيم بن وثيل الرياحي**:

أنَا ابنُ جَلَا وطَلَّاعُ الثَّنَايَا *** متَى أضَعِ العِمامَةَ تَعرِفُوني

وَإِنَّ مَكَانَنَا مِنْ حِمْيَرَيٍّ *** مَكَانُ اللَّيْثِ مِنْ وَسَطِ الْعَرِينِ

أما مثال، النسب إلى اللغة، قول **سُويد بن أبي كاهل اليشكري**:

فإن في المَجْدِ هِمَّاتِي وفي لُغَتي *** عُلْوِيَّةً ولسَاني غيرُ لَحَّانِ

1

2

ولغتي علوية نسبة إلى العالية وهو كل ما كان جهة نجد من أرض الحجاز وهم فصحاء العرب.

أما الناقد السعودي **عبد الله الغذامي** فقد سمّى الوظيفة السابعة للغة، بـ: **الوظيفة النسقية**، وهي قيمة نحوية ونصوصية مخبوءة في الخطاب اللغوي، وليست في المعنى الحرفي، وتحتاج إلى أدوات نقدية مدققة لنكتشفها.

مثلا في قوله تعالى:**"مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ"**، (الحج:15)، فالمعنى المشهور لهذه الآية عند المفسرين، هو أنّه من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله، فليقطع النصر النازل عليه من السماء، أما قوله تعالى**"فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ"** فهذا استفهام بمعنى النفي؛ أي أنه لا يقدر على شفاء غيظه بما يعمله من الأسباب لكيد الرسول.

وكما أنّ هناك معنى عميق آخر لهذه الآية، مَن توهَّم أنَّ الله لن ينصُرَهُ، ولن يُوَفِّقَهُ في حياته، فهذا وَهمٌ كبير، لأنّ هناك سبل لتغيير وضعك؛ وهي في قوله:**"فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ"**، أي قدّم سببا من دعاء أو صدقة أو أي عمل صالح يُرفع إلى السماء، **"ثُمَّ لِيَقْطَعْ"**، أي لتقطع كل معصية، أمّا قوله:**"فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ"**، أي انظر كيف تتغير الأمور في ذهاب غيضك وتيسّر أمرك.

وكذلك في قوله تعالى:**"وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ"**، (آل عمران:02) ففي هذه الآية ليس نهي عن الموت، بل هناك ظل للمعنى لم ينطق، ولكنه يتبادر إلى الذهن وهذا المعنى هو:"تمسّكوا بالإسلام حتى الموت".

أما **أزوالد دوكرو Ducrot** يرى أن اللغة ليست دائما لغة تواصل واضح وشفاف، فقد يوظف المتكلم اللغة كوسيلة تمويه وإضمار للنوايا والمقاصد. فمهرب المخدرات مثلا، قد يستعمل رمز الحناء مثلا، لأنّ من خصائص اللغة خاصيّة **"المواربة" Prevarication** أو المرواغة: بمعنى أنّ المتكلّم قد يلبس الباطل بالحق أو العكس ليدلس الحقيقة عن المتلقّي.